

المراثي الحسينية في الأشعار الأندلسية

(قصيدتي ابن دراج القسطلّي أنموذجاً)

أ. د. عدي حسين الازيرجاوي

كلية التربية / الجامعة المستنصرية

أ. م. د. مرتضى كمال حريجة

كلية التربية / الجامعة المستنصرية

أ. د. محمد حسين المهداوي

كلية التربية جامعة كربلاء

ملخص البحث:

في هذا البحث يروم الباحث تسليط الضوء على شاعر أندلسي يعد أول شاعر أندلسي نظم شعرا حزينا في مصائب أهل البيت (عليهم السلام) يدور موضوع هذه القصائد حول رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) صور لنا الشاعر في هاتين القصيدتين ما جرى من أحداث في كربلاء وما أريق من دماء بريئة فأصبحت إلى يومنا هذا كل ارض كربلاء وكل يوم عاشوراء لتكون كربلاء وما جرى فيها من أحداث مدرسة للتضحية والوفاء والتقوى والجهاد والاستشهاد وبالتالي فهي رمز لكل ملحمة ، فإننا حين نجد ذكرى عاشوراء نتذكر أيضا الملاحم والبطولات التي يسطرها رجال الحشد الأبطال الذين لبوا نداء المرجعية الدينية واستجابوا للجهاد وخروج الملايين من أتباع أهل البيت (عليه السلام) لنصرة الدين والمذهب والوطن هذه النصرة وهذا الخروج لم يأت من فراغ أو وليد صدفة وإنما هو نابع من زيارة الإمام (عليه السلام) المليونية وتربية المنابر الحسينية ومجالس العزاء والبكاء ، فالحشد الشعبي إذن هو ولادة جديدة من رحم القضية الحسينية ومن هذا المنطلق وجدنا الأدباء وعلى مر العصور جسدوا ذلك المصاب الأليم شعرا ونثرا في أساليب فنية وإرتأينا في هذا البحث أن نقف عند واحد منهم فوقفنا عند قصيدتي ابن دراج القسطلّي في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) وذكر آل البيت الأطهار (عليهم السلام).

يتألف البحث من ثلاثة محاور ؛ الأول تحدثنا فيه عن ظاهرة التشيع في الأندلس ، والمحور الثاني يتضمن نبذة مختصرة عن حياة الشاعر ، أما المحور الثالث فهو الأساس من دراستنا هذه تناولنا فيه دراسة شعره دراسة تحليلية فنية مستفيضة.

المحور الأول: ظاهرة التشيع في الأندلس

قبل الشروع في الحديث عن قصيدتي ابن دراج في رثاء الإمام الحسين (عليهم السلام) لابد لنا أن نقف على دراسة ظاهرة التشيع في عصر الشاعر ثم نلقي الضوء على حياته في المحور الثاني. فبعد سقوط الدولة الأموية (١٣٢هـ) ودخول عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وتأسيسه لدولة أموية في بلاد الأندلس ولشدة عداة الأمويين للشيعة فقد سدوا كل المنافذ للحيلولة دون دخول الفكر الشيعي إلى تلك البلاد. وعلى الرغم من ذلك ، إلا أنهم واجهوا الكثير من الثورات ضدهم وكان يقود بعض تلك الثورات أحفاد الصحابة من الشيعة مثل : عبد الله بن سعد بن عمار بن ياسر ، ولا يخفى أن هذه الثورات كانت صبغتها شيعية (١) ، واستمرت الثورات ضد سياسة الأمويين (٢) لذلك نجد أن سياستهم هذه لم تدم طويلا ضد التشيع إذ سرعان ما قامت دولة الأدارسة في المغرب والفاطميين في تونس ومصر. وبعد سقوط الدولة الأموية شكلت حكومة ملوك الطوائف التي كان من جملتها الحموديون وكانوا أصحاب ميول شيعية مما مهد الطريق لتوفير مناخ ملائم لنمو العقائد والأفكار الشيعية والأدب الشيعي. وقد أنشد الشعراء قصائد غراء في مدح ورثاء أهل البيت (عليهم السلام) ومنهم الشاعر ابن دراج القسطلي (ت ٤٢١) الذي يعد أول شاعر أندلسي نظم شعراً حزيناً في مصائب أهل البيت (عليهم السلام) إذ يقول ابن بسام حول قصيدة ابن دراج الهاشمية "إذا سمع دعبل الخزاعي والكميت بن زيد قصيدته هذه فلا يمكنهما أن ينبسا ببنت شفة" (٣). ومن هذا العصر انطلق المد الشيعي واستمر بالجريان وبغزارة. فلا نجد عصراً من عصور الأدب الأندلسي إلا ويظهر فيه شاعر يمدح ويرثي أهل البيت (عليهم السلام).

أما حول كيفية تعامل أهل الأندلس مع يوم عاشوراء فيقول د. جواد شير : "إن هناك مخطوط أثري لكتاب مهم موجود في جامعة القرويين اسمه (أعمال الأعلام فيمن بويع بالخلافة قبل الاحتلام) ومؤلفه (لسان الدين بن الخطيب) ذكر فيه عادات الأندلسيين وتقاليدهم في ذكرى عاشوراء من التمثيل بإقامة الجنازات وإنشاد المراثي وذكر أن هذه المراثي كانت حسينية". (٤) ثم يصف لنا هذه المآتم الحسينية فيقول : "لم يزل الحزن متصلاً على الحسين (عليه السلام) والمآتم قائمة في البلاد يجتمع لها الناس ليلة يوم قتل فيه أي ليلة عاشوراء ولا سيما بشرق الأندلس ، يقيمون رسم الجنازة في شكل من

الثياب ويحتفل بالأطعمة والشموع ويُوقد البخور ويُجلب القراء ويُتغنى بالمرثي الحسينية وبقية من هذا لم تقطع بعد" (٥). ويتناول عمر فروخ هذه الظاهرة في دراسته عن الأدب في الأندلس والمغرب بإيجاز حيث يقول : " ويبدو أن من المناسبات التي كان أهل الأندلس والمغرب يحتفلون بها ؛ ذكرى عاشوراء التي كانت بها مأساة عاشوراء ومقتل الإمام الحسين بن علي (رضي الله عنه)" (٦).

المحور الثاني : حياة ابن دراج القسطلي

هو "أحمد بن محمد بن العاص بن دراج يُكنى بأبي عمر ، ويُلقب بالقسطلي ، وقسطة بلدة تابعة لجيان قرب قلعة بني سعيد أشارت إليها المصادر الأندلسية ، والمشرقية" (٧). وقد نشأ في بيت من بيوتات (قسطة) الرفيعة الشأن حيث كانت تُنسب هذه البلاد إلى جده الأعلى فيقال لها (قسطة دراج) (٨)، وتنتهي أسرته إلى قبيلة (صنهاجة البربرية) (٩). ولد سنة (٣٤٨هـ) في عهد عبد الرحمن الناصر وعاش طفولته وصباه في عهد الحكم المستنصر الذي عُرف عصره بالتألق العلمي. ففي مثل تلك الظروف "نتوقع أن يكون شاعرنا قد أدرك نصيبه وبلغ مأرب أسرته من الثقافة الرصينة التي انعكست على شاعريته بشكل واضح وانتهت به ليكون أبرز شعراء الأندلس في عصره ، ولا شك أنه جمع إلى تلك الثقافة ملكة متميزة وشاعرية أغدقت ثمارها منذ عهد مبكر" (١٠).

ويعتري سنواته الأخيرة شيء من الغموض في صحبة يحيى بن منذر ، إذ لا يلبث أن يغادره الى بلاط مجاهد العامري في دانية فيلبث فيها سنوات حياته الأخيرة ن حيث يدرکه الأجل عام (٤٢١هـ). لقب بمتنبي الأندلس لنبوغه وتقوّه في الشعر .

قال في داليته:

| | |
|--|---|
| كَمْ أَسْتَطِيلُ تَصَلُّي وَتَلْدِي | وَأَرْوُحُ فِي ظُلُمِ الْخَطُوبِ وَأَغْدِي |
| الْأَرْضُ مُشْرِقَةً بِئُورِي رَيْهَا | وَالْفَجْرُ مُنْبَلِّجٌ لِعَيْنِ الْمُهْتَدِي |
| بِأَعْرَ مِنْ بَيْتِ النَّبُوءَةِ وَالْهُدَى | كَالْبَدْرِ مِنْ وَلَدِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ |
| " الْقَاسِمُ " الْمَقْسُومِ رَاحَةً كَفِّهِ | فِي بَسْطِ مَعْرُوفٍ وَقَبْضِ مُهَنْدٍ |
| الْهَاشِمِيِّ الطَّالِبِيِّ الْفَاطِمِيِّ | الْوَارِثِ الْعَلِيَّاءِ بِأَعْلَى فُعْدٍ |
| أَهْدَى أَلَى الدُّنْيَا " عَلِيٌّ " هَدِيَّةُ | فِي طَيِّ أَرْذِيَّةِ النَّهْيِ وَالسُّودِ |
| حَتَّى تَجَلَّى لِلْمَكَارِمِ وَالْعُلَا | بَذَرًا تَنْقَلُ فِي بُرُوجِ الْأَسْعَدِ |
| مُنْقَدِمًا مِنْ مَشْرِقٍ فِي مَشْرِقِ | مُنْتَقِلًا مِنْ سَيِّدٍ فِي سَيِّدِ |

من كُلِّ رُوحٍ بِالْعَفَافِ مُقَدَّسٍ فِي كُلِّ جِسْمٍ بِالسَّنَاءِ مَقْلَدٍ
 بَعْدُوا عَنِ الرَّجَسِ الدِّمِيمِ وَطَهِّرُوا فِي مَنَشَأٍ لِلْمُنْجِبِينَ وَمَوْلَدٍ
 وَلَرَبِّ مَوْجُودٍ وَلَمَّا يُوجَدِ مِنْهُمْ وَمَفْقُودٍ كَأَنْ لَمْ يُفْقَدِ
 مَا يُبَشِّرُوا بِالْفَوْزِ حَتَّى يُبَشِّرُوا بِأَبَرِّ مَنْ خَلَفَ الْجُدُودَ وَأَمَجَدِ
 لَهُمْ زَكِي صَلَاتِنَا وَدُعَاؤُنَا فِي كُلِّ خُطْبَةٍ مُنْبِرٍ وَتَشْهَدِ
 وَمَكَانَهُمْ مِنْ قَلْبِ كُلِّ كَتِيبَةٍ كَمَا كَانَهُمْ مِنْ قَلْبِ كُلِّ مَوْجِدِ
 هُمْ أَنْجَبُوكَ لِسَانَ صَدَقٍ عَنْهُمْ فَرَعَا يَطِيبُ لَنَا بِطِيبِ الْمُحْتَدِ
 وَهُمْ رَضُوكَ لِكُلِّ خُطْبٍ فَادِحٍ وَاسْتَخْلَفُوكَ لِكُلِّ غَاوٍ مُعْتَدِ
 وَلَصُوتٍ دَاعٍ بِالصَّرِيخِ مُتَوِّبٍ وَلَفَكٍ عَانَ بِالطُوبِ مُقَيَّدِ
 مَلَكَ تَشَاكَةَ جُودُهُ وَجَوَادُهُ أَنْ كَرَّ نَحْوَ مُبَارِزٍ أَوْ مُجْتَدِ
 أَغْيَا عَلَيَا : أَهَادِيَاثِ جِيَادِهِ فِي الرُّوْعِ أَهْدَى أَمْ نَدَاهُ فِي النَّدَى؟
 لَا الْفَارِسُ الْأَقْصَى بِمُعْجَزَةٍ وَلَا جَدَاوُهُ لِلْأَدْنَى دُونَ الْأَبْعَدِ
 سَيْفُ الْخِلَافَةِ فِي الْمَدَى وَأَمِينُ هَادُونَ الْعُيُوبِ وَرِثَتُهَا فِي الْمَشْهَدِ
 يُبْلِي جَوَانِحَهَا بِنَفْسِ مُخَاطِرٍ وَيُنِيمُ أَعْيُنَهَا بِغَيْنِ مُسَهَّدِ
 جَهْدِ الْكِرَامِ وَمَا دَنُوا مِنْ غَايَةٍ أَحْرَزَتْهَا مَتَانِيًّا لَمْ تَجْهَدِ
 بِكَ أَحْمَدَتْ نِيرَانُهَا مِنْ فِتْنَةٍ لَوْلَاكَ يَا بَنِي نَبِيِّنَا لَمْ تُحْمَدِ
 مَنْ إِذَا سِوَاكَ إِذَا الرِّجَالُ تَدَافَعُوا رَأْيَا يُؤَلِّفُهَا بَرَأْيٍ أَوْحَدِ
 وَإِذَا الصَّوَارِمُ جَرَدَتْ فِي فِتْنَةٍ عَمِيَاءَ تُعْمِدُهَا بِسَيْفٍ مُعْمَدِ
 وَلَرَبِّ مُشْعَلِهِ الرِّمَاحِ كَفَفَتْهَا عَفْوًا وَمَا زَعَزَعَتْ حَبْوَةَ مُرْتَدِ
 يَأْمَنُ إِذَا عَلَقَتْ يَدِي بِيَمِينِهِ فَالْكَاشِحُونَ أَقْلَ مَا مَلَكَتْ يَدِي
 وَإِذَا عَقَلَتْ رَوَاحِلِي بِفَنَائِهِ فَقَدْ أَقْتَنَيْتُ ضَمَانَ يَوْمِي عَنْ غَدِ
 وَعَدْتَنِي الدُّنْيَا شَقِيقَكَ مَفْرَعًا مِنْ سُوءِ عَادِيَةِ الزَّمَانِ الْأَنْكَدِ
 وَكَفَى بِبِشْرِكَ لِي بِبَشِيرٍ بِالْمُنَى وَقَبُولٍ وَجْهَكَ مُنْجَزًا لِلْمَوْعِدِ

| | |
|--|---|
| لِلْمُقْتَدِرِينَ وَأَنْتَ أَجْدَرُ مُقْتَدِرٍ | يَا بْنَ الشَّفِيعِ بِنَا وَأَكْرَمَ أَسْوَةٍ |
| تَحْزِرُ الثَّنَاءَ مُخْلَدًا بِمُخْلَدٍ | أَمْدُدْ بِمِيقِكَ شَافِعًا وَمُشْفَعًا |
| أَلَّا يَضِيعَ سَمِيٌّ جَدِّكَ أَحْمَدٍ | يَا بْنَ الْوَصِيِّ عَلِيٍّ أَوْصِ سَمِيَهُ |
| إِصْغَاءً وَدَّ النَّازِحِ الْمُتَوَدِّدِ | يَا صَفْوَةَ الْحَسَنِينَ كَمْ قَدْ أَحْسَنَا |
| عَنْ مُطْبِقٍ فِي لَيْلٍ هَمٍّ أَسْوَدِ؟ | يَا أَيُّهَا الْقَمَرَانِ آيْنَ سَنَاكُمَا |
| النُّهَى وَالْعِلْمُ فِي الثَّرْبِ الصَّدِيِّ | يَا أَيُّهَا الْغَيْثَانِ هَلْ لَكُمَا إِلَى رَوْضٍ |
| مُهْدِي السَّلَامِ لِفَرْقَدٍ مِنْ فَرْقَدٍ | يَا فَرْقَدَيَّ قُطِبِ الْخِلَافَةِ جَهْرًا |
| ازْدَادَ لِكُلِّ مُكَوِّفٍ أَوْ مُنْجِدٍ | فَلْأَجْعَلَنَّ ثَنَاءً مَا أَوْلَيْتُمُ |
| قَبْرِ بَطِينَةٍ أَوْ بِصَحْنِ الْمَسْجِدِ | حَتَّى يُسَمَّعَ طِيبَ مَا أَتْنِي بِهِ |
| وَأُبُوكَ يَسْقِي لِلرَّوَاءِ السَّرْمَدِ | وَإِذَا وَرَدْنَا حَوْضَ جَدِّكَ فَاسْتَمْعُ |
| وثناء ما رَفَّهْتُمَا مِنْ مَوْرِدٍ | شُكْرَ الَّذِي أَرْحَبْتُمَا مِنْ مَنْزِلِي |
| حَمَلًا لِمَبْهُورِ الْفَوَادِ مُبَلِّدٍ | فِي سِتَةِ ضَعْفُوا وَضَعِفَ عَدُّهُمْ |
| أَفَلَاذَ قَلْبٍ بِالْهُمُومِ مُبَدِّدٍ | شَدَّ الْجَلَاءُ رِحَالَهُمْ فَتَحَمَلْتُ |
| أَوْطَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ كُلِّ مُشْرِدٍ | وَحَدَّثْتُ بِهِمْ صَعَقَاتُ رَوْعٍ شَرَّدْتُ |
| وَلَا ذُو مَهْدِهِمْ بِمَهْدٍ | لَأَدَاتُ خَدْرِهِمْ يُرَآمُ لَوَجْهَهَا كُنُ |
| مِنْ بَعْدِ ظِلِّ فِي الْقُصُورِ مُمَدِّدٍ | عَادُوا بَلَمَعَ الْآلِ فِي مَدِّ الصُّحَى |
| مِنْهُمْ بِالْبُيُوسِ أَبْشَارَ النَّعِيمِ الْأَرْغَدِ | وَرَضُوا لِبَاسَ الْجُودِ يَنْهَكُ |
| أَهْوَالَ بَحْرِ ذِي غَوَارِبِ مُزْبِدٍ | وَاسْتَوَظَّنُوا فَرْعًا إِلَى بَحْرِ النَّدَى |
| وَمُرُودٍ بِالصَّبْرِ غَيْرِ مُرُودٍ | مَنْ كُلِّ عَارٍ بِالتَّجَمُّلِ مُكْتَسٍ |
| وَالذَّلَّ بَعْدَ الْعِزِّ آلَ مُحَمَّدٍ | وَلِتَعْمَ جَبْرُ الْفَقْرِ مِنْ بَعْدِ الْغِنَى |

قال في لاميته :

لَعَلَّكَ يَا شَمْسُ عِنْدَ الْأَصِيلِ شَجِيتَ لِشَجْوِ الْغَرِيبِ الدَّلِيلِ
فَكُونِي شَفِيعِي إِلَى ابْنِ الشَّفِيعِ وَكُونِي رَسُولِي إِلَى ابْنِ الرَّسُولِ
فَمَا شَهِدْتَ فَأُزَكِّ شَهِيدِ وَإِنَّمَا دَلَّلْتَ فَأَهْدِي دَلِيلِ
عَلَى سَابِقٍ فِي قُبُودِ الْخُطُوبِ وَنَجْمٍ سَنَاءً فِي غَنَاءِ السُّيُوفِ
يُنَادِي النَّدَى لِسِقَامِ الضِّيَاعِ وَيَشْكُو إِلَى الْمَلِكِ دَاءَ الْخُمُولِ
وَعَزَّ عَلَى الْعِلْمِ مَثْوَاهُ أَرْضاً عَلَى حُكْمِ دَهْرٍ ظُلُومٍ جَهُولِ
وَيَعْجَبُ كَيْفَ دَنَا مِنْ " عَلِيٍّ " وَلَمْ تَنْفَصِمِ حَلَقَاتُ الْكُتُوبِ
وَكَيْفَ تَنْسَمُ آلُ النَّبِيِّ وَأَبْطَأَ عَنْهُ شِفَاءُ الْغَلِيلِ
وَأَطْوَادُ عَزِهِمْ مَاتِلَاتٌ لَهُ وَهُوَ يَزْنُو بِطَرْفِ كَلِيلِ
وَأُبْحَرُهُمْ زَاخِرَاتُ الْيَنَةِ وَيَرْتَشِفُ فِي التَّمَدِّ الْمُسْتَحِيلِ
وَقَدْ آذَنُوهُ الْخَصِيبَ الْمَرِيعِ وَمَزَتْغُهُ فِي الْوَحِيمِ الْوَبِيلِ
تَجَرَّأَ مِنْ جَنَّتِي مَارِبٍ بِخَمْطٍ وَأَثَلٍ وَسِدْرٍ قَلِيلِ
غَرِيبٌ وَكَمْ غَرَبَتْ رَاحَتَا هُ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَجْهِ بَكْرِ بَنُوتِ
مُكْرَمَةٍ مَا نَأَتْ عَنْ بِلَادٍ وَلَا قَرَبَتْ مِنْ شَبِيهِ مَثِيلِ
تَضِيءُ لَهَا مَظْلَمَاتُ النُّفُوسِ وَتُزَوِّي بِهَا ظَامِنَاتُ الْعُقُولِ
وَتَطْلُعُ فِي زَاهِرَاتِ النُّجُومِ وَمُطْلِعُهَا جَانِحٌ لِلْأَفْئُولِ
شَرِيدُ السُّيُوفِ وَقَلُّ الْحَتُوفِ يَكِيدُ بِأَفْلَاحِ قَلْبٍ مَهُولِ
تَهَاوَتْ بِهِمْ مُضْعِفَاتُ الرُّوَاعِدِ فِي مَذْجِنَاتِ الضُّحَى وَالْأَصِيلِ
بَوَارِقُ ظُلُمَاءٍ ظُلَمَاءِ ظُلَمٍ ثُبِيحُ دُمَى مِنْ حِمَى أَوْ دَمَاءٍ مِنْ قَتِيلِ
فَأَذْهَلَ مُرْضِعَةً عَنْ رَضِيعِ وَأَسَى الْحَمَائِمِ ذَكَرَ الْهَدِيلِ
وَشَطَّ الصَّرِيخُ عَلَى ذِي الصَّرَاخِ وَفَاتِ الْمُعَوَّلُ ذَاتَ الْعَوِيلِ
فَمَا تَهْتَدِي الْعَيْنُ فِيهَا سَبِيلًا سِوَى سَبَلِ الْعِبَرَاتِ الْهُمُولِ

ولا يَعْرِفُ المَوْتُ فِيهَا طَرِيقاً إِلَى النَّفْسِ إِلَّا بَعْضُ صَقِيلِ
رَكِبْتُ لَهَا مَحْمَلاً لِلنَّجَاةِ وَصِيرْتُ قَصْدَكَ فِيهِ عَدِيلِي
فَرَدْتُ عَلَى عَقَبِهَا المَنُوتُ بِوَاقٍ مُجِيرٍ وَرَأْيٍ أَصِيلِ
وَقَدْ سُمْتُهَا بِنَفِيسِ التَّلَادِ عَلَى أَنْفَسِ ضَائِعَاتِ الدُّخُولِ
فَهَلْتُ الِيسَارَ بِيُسْرَى جَوَادِ وَخُطْتُ الذَّمَارَ بِيَمْنَى بَخِيلِ
نُفُوساً حَنْتَ قَوْسُ عَطْفِي عَلَيْهَا فَكُنَّ سِهَامَ قِسِي الخُمُولِ
وَمِنْ دُونِنَا أَنْسَاكَ الدِّيَارِ نِهَابِ الحِمَى مُوحِشَاتِ
يُهَيِّجُ فِيهَا زَفِيرُ الرِّيَّاحِ مَدَامِعَ شَجْوِ السَّحَابِ المُخِيلِ
وَتَلَطَّمُ فِيهَا أَكْفُ البُرُوقِ خُدُودَ غَرَاصٍ عَلَيْنَا تُكُولِ
تَظَلَّمُ مِنْ هَاطِلَاتِ العَمَامِ وَتَشْكُو مِنْ الرِّيحِ جَرَّ الدُّيُولِ
مَغَابِي السَّرُورِ لَبَسْنَ الحِدَادَ عَلَى لَابِسَاتِ ثِيَابِ الدُّهُولِ
خَطِيبَاتِ خَطْبِ النُّوَى والمُهِوَرِ مَهَارَى عَلَيْهَا رِحَالُ الرَّحِيلِ
فَمِنْ حَرَّةٍ جُلَيْتَ بِالْجَلَاءِ وَعَذْرَاءُ نُصَّتْ بِنَصِّ الدَّمِيلِ
وَلَاخَلِي إِلَّا جُمَانُ الدُّمُوعِ يَسِيلُ عَلَى كُلِّ خَذٍّ أَسِيلِ
فَبُذِلْنَ مِنْ بَعْدِ خَفَضِ النُّعِيمِ بِشَقِّ الخُرُونِ وَوَعَثِ السُّهُولِ
وَمِنْ قِصْرِ اللَّيْلِ تَحْتَ الحِجَالِ بِهِوْلِ السُّرَى تَحْتَ لَيْلٍ طَوِيلِ
وَمِنْ عُلَى المَاءِ تَحْتَ الظَّلَالِ صَلَاءِ القُلُوبِ بِحَرَ الغِيلِ
وَمِنْ طِيبِ نَفْحِ بَنُورِ الرِّيَاضِ تَلْظِي لَفْحِ بِنَارِ المَقِيلِ
وَمِنْ أَنْسَاهَا بَيْنَ ظُفْرِ وَتَرْبِ سُرَى لَيْلِهَا بَيْنَ ذِيبٍ وَعُورِ
وَمِنْ كُلِّ مَرَأَى مُحْيَا جَمِيلِ تَلْقَى الخُطُوبِ بِصَبْرِ جَمِيلِ
لَعَلَّ عَوَاقِبُهُ أَنْ تَتِمَّ فِيهِدِي الغَرِيبُ سَوَاءَ السَّبِيلِ
إِلَى الهَاشِمِيِّ إِلَى الطَّالِبِي إِلَى الفَاطِمِي العُطُوفِ الوُضُولِ
إِلَى ابْنِ الوَصِيِّ إِلَى ابْنِ النَّبِيِّ إِلَى ابْنِ الذَّبِيحِ إِلَى ابْنِ الخَلِيلِ

إلى المُسْتَجَارِ مِنَ المُسْتَجِيرِ إلى المُسْتَقَالِ مِنَ المُسْتَقِيلِ
إلى المُسْتَاغِ المَلِكِ العَزِيزِ من المُسْتَيْفِ العَرِيبِ الدَّلِيلِ
سَلامٌ وَأَنْتَ ابْنُ بَدءِ السَّلامِ مِنْ صَيفِهِ المُكْرَمَيْنِ الدُّخُولِ
غَدَاةٌ يُصَيِّفُ أَهْلَ السَّمَاءِ إلى مَنْزِلِ آفِ لِلنَّزِيلِ
فَرَدَّ سَلامَ حَلِيمٍ مُنِيبِ وَجاءَ بِعَجَلٍ كَرِيمٍ عَجُولِ
وَأَعْطَاهُ مَأْلَفَ لِلصُّيُوفِ وَمَوْطُنُ ذِي عَيْلَةٍ أَوْ مُعِيلِ
شَرَائِعُ خَلَّدَهَا فِي الْأَنَامِ مِنْ كُلِّ أَرْضٍ وَفِي كُلِّ جِيلِ
وما زَالَ مِنْ آلِهِ حَافِظُ معالِمِهَا خَفِظَ بِرٍ وَصُولِ
بأنفَسٍ مَجْدٍ سِرَاعٍ إِلَيْهَا وَأَيَّدَ عَلَيْهَا شُهُودُ عُذُولِ
فَسَمِّيَ جَدُّكَ " عَمْرُو الْكَرَامِ " بِهِشَمُ الثَّرِيدِ زَمَانِ الْمُحُولِ
و" شَيْبَةُ " سَاقِي الْحَجِيجِ الْكَفِيلِ بِمَاوَى العَرِيبِ وَقُوتِ الْخَلِيلِ
وَصَيِّفٌ حَتَّى وَحُوشِ الْفَلَاةِ وَأَهْدَى الْقَرَى لِهَضَابِ الْوُغُولِ
وإنَّ أبا طَالِبٍ لِلصُّيُوفِ لَأَطْلُبُ مِنْ صَيفَةٍ لِلْخُلُولِ
يَبَادِرُهُمْ بِابْتِنَاءِ الْقِبَابِ وَيُكْرِمُهُمْ بِدُنُو النَّزُولِ
وَيَخْلَعُ عَنْ مَنَكِبَيْهِ الرِّدَاءِ سُرُوراً وَفَرشاً لَصَيْفِ الْفُيُولِ
يَرُوحُ عَلَيْهِمْ بُعْرُ الْحِفَانِ وَيَغْدُو لَهُمُ بِالْعَرِيزِ النَّشِيلِ
قَرَى عاجِلاً يَقْتَضِي شَرِبُهُ مِنْ الْكَؤُثْرِ الْعَذْبِ وَالسَّلْسَبِيلِ
فَأَنْتُمْ هَذَاهُ حَيَاةٍ وَمَوْتِ وَأَنْتُمْ أَيْمَةٌ فِعْلٍ وَقِيلِ
وَسَادَاتُ مِنْ جَلٍّ جَنَّاتِ عَدْنِ جَمِيعِ شَبَابِهِمْ وَالْكُهُولِ
وَأَنْتُمْ خَلَيفُ دُنْيَا وَدِينِ بِحُكْمِ الْكِتَابِ وَحُكْمِ الْعُقُولِ
ووالدُكُمْ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ لَكُمْ مِنْهُ مَجْدٌ حَقِيٌّ كَفِيلِ
تَلَدُّ بِحَمْلِكُمْ عَاتِقَاهُ عَلَى حَمَلَةٍ كُلِّ عِيبٍ ثَقِيلِ
وَرَحْبٌ عَلَى صَمْعِكُمْ صَدْرُهُ إِذَا ضَاقَ صَدْرُ أَبِي عَنْ سَلِيلِ

وَيُطْرِقُهُ الْوَحْيُ وَهَنًا وَأَنْتُمْ
وَرَزَوْدَكُمْ كُلَّ هَذِي زَكِي
صَجِيْعَاهُ بَيْنَ يَدَيَّ جَبْرِئِيلِ
وَأُوْدَعَكُمْ كُلَّ رَأْيٍ أَصِيلِ

المحور الثالث:

قراءة تحليلية لقصيدتي ابن دراج القسطلبي في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) من خلال قراءتنا لديوان ابن دراج القسطلبي الشاعر الأندلسي وجدنا أن هناك نصين شعريين يتضمنان رثاء للإمام الحسين (عليه السلام) والشاعر لم يصرح في هذين النصين بذلك الغرض الشعري المضمن في القصيدتين الدالية واللامية فهو في القصيدة الدالية يزعم أنه يقول النص في القاسم بن حمود الوزير الذي كان بقرطبة وحينما سأله أن يكتب لأخيه علي بسبته ولكن مضمون النص كان رثاء للإمام الحسين (عليه السلام) واللامية يزعم أن غرضها مدح علي بن حمود بسبته حين قصده من الأندلس وكان المضمون أيضا رثاء للإمام الحسين.

القصيدة الدالية تقع في إحدى وخمسين بيتا ، والقصيدة اللامية تقع في إحدى وسبعين بيتاً ، يستهل الشاعر قصيدته الدالية بثنائية ضدية رمزية يجسد فيها الشاعر ثنائية الظلام والنور ، والهداية والضلال ، مبتدئاً القصيدة ب (كم) الخبرية التي يجسد بها كثرة تضلل الشاعر وتلدده أي ضياعه في النصوص التي يمدح ويرثي ويقول فيمن لم يرشد بهم إلى النور والهداية ويروح ويغتدي في الخطوب التي لا فائدة منها ولا رشاد ينبغي ، لكنه يكسر ذلك الضلال والتخبط النصي يمينا وشمالاً في نصوصٍ مظلمة ليكسر ذلك الظلام ، ليسير في هذا النص منحى نورانيا مشرقا برثاء الأغر البدر من ولد النبي محمد (ص) الإمام الحسين (عليه السلام) سفينة النجاة ، ويسهم حرف الواو في تجسيد تلك الغربة الشخصية التي يشعر بها الشاعر إذ يسهم ذلك الحرف (الواو) في وصل تلك الثنائيات ليحقق الصورة الاغترابية والتي لها دلالة سيميائية تشبيهية في غربة الإمام الحسين (عليه السلام) حين استشهد في واقعة الطف الذي أشرقت الأرض بنوره.

ويبدأ الشاعر رثائته الدالية بعد ذلك الاستمتاع بصورة كنائية ترمز إلى شخص الإمام الحسين (عليه السلام)، بقوله بأغر من بيت النبوة والهدى لتتولد من تلك الصورة الكنائية النورانية صورة تشبيهية

نورية حين يقول (كالبدر من وُلِدَ النبي مُحَمَّدٍ) ، ليحقق بتلك الصورة النورية النور الشامل لنبي الهدى وآل بيته الأطهار (صلوات الله وسلامه عليهم) ، ثم تتساق الصفات الحسينية الطاهرة انسياقا طواعيا في تعددٍ تفصيلي إذ هو (القاسم) ويولد من تلك الصفة الحسينية معاني وصفات أخرى تجسد الكرم والشجاعة من خلال الجنس الصوتي بين (القاسم والمقسوم) لتتشق من تلك الصورة التجنيسية صورة كنائية حيث راحة كفه مقسومة بين (بسط المعروف) (وقبض المهند) لتحقيق معني الكرم والشجاعة في شخصية الحسين (عليه السلام) .

ولاشك إن بتلك الصفات دلالة سيمائية تجسد معنى العطاء بأسلوب موجز مشيرا إلى واقعة الطف وما فيها من عطاء للإسلام ولاستقامة دين محمد (صلى الله عليه واله وسلم) إذ قدم الإمام الحسين دمه بحدود وشجاعة كي يستقيم دين جده محمد (صلوات الله وسلامه عليه) ، ثم يحدد صفاته التي تشير إلى النسب الطاهر الجليل حين يقول (الهاشمي ، الطالبلي ، الفاطمي) ولا شك أن ذلك الوصف الثلاثي يجسد وراثة العلياء بأعلى مقعد فتلك (الصفات الكنائية تجسد إبداعا وصفياً شاملا لشخصية الإمام الحسين عليه السلام ولاشك أن تكرار صوت الياء (ياء النسب) جسدت ذلك النسب الطاهر النسب الهاشمي العلوي الفاطمي ، حيث الجذر الطاهر الذي يورث العلياء العالية ، ومن حرف العين و) بأعلى العدد) تمتد الأمواج الصوتية المتعالية المتجانسة لترسم لنا صورة أخرى محورها شخصية أمير المؤمنين علي (عليه السلام) حيث يتجلى حرف العين بإبداعاته الصوتية المتناسقة بين العلياء و(علي) ، الأعلى ، لتجسد النسب الحسيني الطاهر الممتد للإمام (علي) أبا الحسين الذي أهدى الحسين إلى الدنيا وتلك الصورة الاستعارية المكنية التجسيمية حققت صورة الرداء الحسيني الذي يخلع على الإمام الحسين (عليه السلام) وهو رداء من النهى السؤدد ولاشك إن تلك الهدية العلوية هي للمكارم والعلو ، فكان الحسين (عليه السلام) دوماً بداراً ينتقل بين البروج السماوية.

ويسهم التكرار اللفظي لبعض الألفاظ مثل (مشرق) ، (سيد) في تجسيد تلك الصفات الحسينية السرمدية في مكانها وشخصها وزمانها ، وأمدتها الممتد شرقاً وأزلاً منطلقاً إلى مدح آل البيت الأطهار في روحهم الموشحة بالعفاف المقدس ، وجنسهم النوراني ، ثم يعرج إلى الاقتباس القرآني لقوله تعالى:

(إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) ﴿٣٣﴾/الأحزاب

وذلك الخطاب الموجه إلى آل البيت الأطهار يقتبسه الشاعر ليقول بعدوا عن الرجس الذميم وطهروا في وصف موجز وعظيم لآل البيت (صلوات الله وسلامه عليهم) أصحاب المنشأ النجيب الصالح ، صفوة المختار المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ويأتي الشاعر بحرف الجر (رُبَّ) ليحقق الصورة الأزلية لكرامات آل البيت (عليهم السلام) ، وفي سياقٍ رمزي كنائي يحقق وجودهم مع مَنْ يستغيث بهم ويستجد بهم وجوداً روحياً روحياً ناطقاً) ويُشير بـ (المفقود الذي لم يُفقد) إلى شخص الإمام الحسين (عليه السلام) فهو موجودٌ بيننا دوماً فهم أحياء وليس أموات أرواحهم حية بيننا تنطق بأمجادهم ومفاخرهم الأزلية وهم عُدةٌ لنا ولكل من يستغيث بهم ، وهم فازوا بجنان الخلد مع نبي الرحمة (صلى الله عليه وآله وسلم) ولهم أركى الصلاة والدعاء في كل خطبة ، وتحقق ثنائية الترهيب والترهيب أو (الخوف والرغبة والحب في جدلية تجسد التحام هذه الثنائية لتحقيق صورة آل البيت في قلوب الموحد لهم وفي قلوب الكتائب الحربية ، ولا شك أن تلك كنايات تجسد شخصية آل البيت (عليهم السلام) وامتلاء القلوب بحبها والوجل منها وقاراً وتعظيماً ، ثم يعرج ثانياً إلى شخص الإمام الحسين (عليه السلام) المنبثق من آل البيت الأطهار (عليهم السلام أجمعين) ، فهو باستشهاده إنما مثلهم جميعاً وذلك المعنى جسده الشاعر بتكرار الضمير المنفصل (هم) وكاف الخطاب المتحقق في التواتر الصوتي بين الجملتين (هم أنجبوك) و (هم رَضوك) ، فأنت لسان الصدق عنهم وفرعاً طيباً وأنت لكل خطبٍ فادحٍ ، وتتنازع صفتا الكرم والشجاعة في شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) ويتمثل ذلك التنازع الوصفي في الجناس الصوتي الدلالي بين (الجود والجواد) ، حتى أن اقرب الناس إليه وهو أبوه أمير المؤمنين (ع) وقف حائراً بأي الصفتين أكثر التصاقاً به متعجباً في أغليتهما في شخصه العظيم.

ويكرر معنى الجود والشجاعة في القصيدة بأكملها بأسلوب القصر المتحقق بـ (لا) المتكررة مرتين ليجسد فخره بتلك الصفات الحسينية وقصرها على شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) كذلك حقق ذلك الحضور الحسيني في الأعماق الإنسانية من خلال التضاد الأسلوبي المتحقق بين (الأدنى) و (الأبعد) ، ثم يشبّهه بـ (سيف الخلافة) ، ولا شك أنه بتلك الصفات المدحية أراد أن يرثي شخصه الكريم بأجل الصفات وأعماقها ، ويمتلئ النص الرثائي هذا بالكنايات الفاعلة التي أضحت معادلاً

موضوعيا لمعاني الكرم والجود والعطاء والتضحية الماثلة في شخصية الحسين (عليه السلام) فهو صاحب العين المسهدة ما يناله ببسر وسهولة بينما يجهد الآخرون فيه ولم ينله احد منهم ، بل هو صاحب الرأي السديد ويكنى عن ذلك (بك أخدمت) ولا شك أن أسلوبية التقديم والتأخير وفاعليتها في الإبداع النصي جسدت الخصوصية الوصفية لابن الوصي (عليها السلام) ، وتتراكم الكنايات التي تجسد الصورة الوصفية التي تصفه بالرأي السديد ، تارة بالاستفهام الاستنكاري المتحقق بـ(من) الاستفهامية بقوله من ذا سواك إذ الرجال تدافعوا (أيا يؤلفها رأي أو حد) ثم قوله عاطفياً ذلك الوصف الكنائي بقوله : (وإذا الصوارم جردت في فتنةٍ عمايةً تَعَمَّدها بسيفٌ مُغَمَّدٌ).

ويوظف الشاعر (يا) الندائية مضافاً لها اسم الاستفهام (مَنْ) ليحقق خصوصية المنادى المحذوف والذي عوض باسم الاستفهام ليحقق من الصورة الكنائية وهي التعلق بيمين الحسين (عليه السلام) الذي بقي الإنسان الكاشحين أي الأعداء والخصوم ، وكذلك الرواحل حين تُعقد بالمكان الذي يوجد فيه شخص الإمام الحسين الشهيد فهي مؤمنة وعليها ضمان اليوم والغد والعمر بأكمله ، وحين أستجد بك فأنت البشرُ والبشر لي بالْمُنَى وانجاز الموعد فأنت لها ، ويكرر الشاعر صورة اليد (اليمنى) كناية عن الصفات الحُسَينية المتجسدة باليد المباركة فضلاً عن الأيمان الى المعنى المبارك المتجسد في الاقتباس القرآني : وأصْحَبُ الْيَمِينِ ما أَصْحَبُ الْيَمِينِ ٢٧ في سدرٍ مَخْضُودٍ ٢٨ وَطَلَحٍ مَنْضُودٍ ٢٩ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ٣٠ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ٣١ وَفَاجِئَةٍ كَثِيرَةٍ ٣٢ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ٣٣ وَفُرْشٍ مَرْفُوعَةٍ ٣٤ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ٣٥ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً ٣٦ غُرُباً أَتْرَاباً ٣٧ لأَصْحَبِ الْيَمِينِ ٣٨ ثَلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ٣٩ وَثَلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ٤٠ وَأَصْحَبُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَبُ الشِّمَالِ ٤١ فِي سُمُومٍ وَحَمِيمٍ ٤٢ وَظِلٍّ مِنْ يَحُمُومٍ ٤٣ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ٤٥ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ٤٦ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ٤٧ وَأَوْعَا بَابُؤُنَا الْأَوَّلُونَ ٤٨ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتٍ يَوْمٍ مَعْلُومٍ الواقعة: ٢٧ - ٥٠

فأنت ابن الشفيع ، وأنت الشافع والمُشَفَّع وقد أدى ذلك التكرار الصوتي إلى معانٍ دلالية تجسد الصفات المباركة لآل البيت (عليهم السلام) والإمام الحسين بشكل خاص ، فضلاً عما يشيعه ذلك الإبداع التكراري من تناغٍ صوتي متجانس أثرى النص بالانسجام الصوتي والدلالي ، ويكرر الشاعر

كثيراً (يا) الندائية ويضيف إليها أحياناً (ها) التنبيه (بابن الوصي علي) (يا صفوة الحسنين) ، ولا شك انه حين يشير إلى شخصية الإمام علي (عليه السلام) يريد أن يرمي إلى زوجه البتول والمصاهرة المباركة مع خير الأنام جدّ الحسنين أحمد (صلوات الله وسلامه عليه) وحين يشير إلى (الحسنين) يريد أن يُعرج إلى ذكر الحسن والحسين معاً ويوظف (كم) الخبرية ليجسد كرامات الحسنين في وقوفهم مع مَنْ يواليهم ويودهم حتى وإن بُعِد المكان ثم يستجد بنور الحسنين حتى يُتَشرف في دياجير الليل الأسود ولا شك إن الشاعر يستغيث بنور الحسنين حتى يجلى همه وليله الداجي ، ثم نراه يوظف ألفاظ الصيغة بصيغة المثني المضاف لياء النداء ليحقق التكرار التركيبي المتعاقب من تلك العناصر الطبيعية الصفات الحسينية والحسينية المعطاء وتبقى (القمران والغيثان) إشارة إلى العطاء الذي لا ينضب نوراً وثراءً ، في تركيب كنائي متواتر ، ثم يسرد منها (بالفرقدين) ليحقق صورة مجازية تجسيمية بقوله (قطب الخلافة) مكرراً لفظة (الفرقد) ثلاث مرات ليحقق التواصلية والعطاء الموروث لآل بيت النبي الأطهار (عليهم السلام) ، ثم يوظف (نون التوكيد الثقيلة) بقوله (لأَجْعَلَنَّ) حتى يحقق الثناء المتواصل من الشاعر حتى يضحى ثناؤه زاداً للمستجد بال المصطفى (صلى الله عليه واله وسلم) .

ثم يستنطق الشاعر الصورة السمعية لتثري ذلك الامتداد الصوتي الممتد من المغرب حيث الأندلس إلى الأرض طيبة أو قبر طيبة كناية عن المسجد النبوي الشريف ، ولا شك أن ذلك الامتداد الصوتي الفاعل أثرى الفضاء الشعري المكاني وحقق الاندماج المكاني والزماني المتحقق بتلك الدلالة النصية المتضمنة ذكر الصفات الحسينية الكريمة ، الذائعة الصيت فالحسين ثورةً معطاء من مشارق الأرض حتى مغاربها هو مصباح الهدى وسفينة النجاة ، ثم يسري إلى الحياة الأخرى من خلال النواة المركزية الفاعلة أو الإشارة الفاعلة المتجسدة بقوله (حوض جدك) إشارة إلى حوض الكوثر حيث الجنان ووجود المصطفى مع ابن عمه (صلوات الله وسلامه عليهم) حيث الإرواء للخالدين فيها إشارة إلى قوله تعالى

:

(جَنَّتْ عَدْنٌ مُفَتَّحَةٌ لَهُمُ الْأَبْوَابُ ٥٠) / ص

حيث يتجسد الحمد والشكر والثناء من المواليين الذين كانوا موالين لآل البيت في الحياة الدنيا ، ثم بعد ذلك أي في (التسعة أبيات الأخيرة) وبعد المدح المفصل لشخص الحسين(عليه السلام) يجعل خاتمة النص الحديث عن واقعة الطف وما فيها من أشجان وما حل فيها من ظلم وخيانةٍ ووجعٍ ويرمز بالرمز العددي ليحقق صورة كنائية ترمز إلى أصحاب الكساء في قوله : (في ستة ضعفوا وضُغِفَ عُدَّهُم) وهم الرسول(ﷺ) وأمير المؤمنين وزوجته البتول والحسين وسادسهم الله (سبحانه وتعالى) الذين ضعف عُدَّهُم حيث حملوا الهم الذي ضاعف حجمهم حيث أضحى فؤادهم مبدد بالحزن والألم بعد تلك الواقعة التي استشهد فيها الإمام الحسين وال بيته وأصحابه في ارض كربلاء ، وتلك الرحلة الصحراوية القاسية التي شدوا الرحال إليها ، وتتوالى الصور الكنائية التي تجسد تلك الواقعة المؤلمة وأهوالها حيث الصعقات التي شردت أوطانهم فعانوا الغربة في ارض كربلاء بعد أن كانوا مجتمعين في بلاد الشام حيث السبي لذات الخدر إشارة بديعة إلى السيدة زينب عليها السلام حيث الروع للأطفال في المهد إشارة إلى أولاد الإمام الحسين(عليهم السلام أجمعين) وتمتد تلك الواقعة الأليمة حتى أنهم تعوزوا منها ولمع النياق في تلك الصحارى المفقرة والعطش والسراب الخادع ،من قصورٍ وظلٍ ممدود لكنهم رحبوا بذلك لان لباس الجود حين ينهك منهم يغيرهم بالنعيم الأرغد (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لان الظلم في الدنيا والخيانة والاعتداء بغير وجه حق وما تعرض له آل البيت الأطهار من فجيرة في هذه الواقعة المؤلمة ، أورثهم الفردوس الأعلى ، والفوز بالجنان عند سورة المنتهى وحوض الكوثر ، ثم تتوالد الصور الشعرية المحققة لذلك الخلود الأزلي للحبيب المصطفى وال بيته الأطهار(عليهم السلام) حيث الإشارات اللفظية المحققة للمعادل الموضوعي لتلك التجربة النصية إذ يكرر في خاتم القصيدة لفظة (البحر) ليحقق بها نسجا كنائيا يجسد البحرين المتضادين حيث بحر الدنيا وما فيها من أهوال وظلم يمثل (بواقعة الطف) وبحر الندى الذين استوطنوا فيه لان فيه الخلود إيماننا بقوله تعالى (ولدار الآخرة هي الحيوان) العنكبوت ٦٤ ثم تأتي الثنائيات الضدية (الفقر ، الغنى) ،(الذل ، العز) والغنى لآل البيت الأطهار(عليهم السلام) حيث الجنان في عليين مع جدهم خاتم الأنبياء والمرسلين محمد (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين)

تقوم القصيدة اللامية أيضا على استهلال حزين يتخذ من (الشمس عند الأصيل) مفتاحاً ومعادلاً موضوعياً طبيعياً لذلك الشجو الذي يومئ إلى واقعة الطف وما فيها من دمة تحرق الأكباد قبل الوجنات والعيون ، مجسداً من خلال ذلك الاستهلال الذي جسد الغربة الزمنية والمكانية إشارة لغربة الإمام الحسين (عليه السلام) في ارض كربلاء والخيانة التي تعرض لها ، فعادت تجربته تجربة قاسية تشجي لها شمس الأصيل ، فعناصر الطبيعة ولا سيما (الشمس) المشرقة منذ الأزل تشجوا لأفول ذلك النجم وبدر السماء ابن البتول وأمير المؤمنين أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (عليهم السلام) وما نراه في هذا النص أو القصيدة اللامية إن الشاعر استعاض في رثاء الإمام الحسين (عليه السلام) والمشاهد الرثائية وختمها بالصفات المحمدية والعلوية والحسينية أي ختمها بالمدح ، على الضد من قصيدته الدالية السالفة الذكر حيث بدأها بالمدح وختمها بالرثاء وذكر واقعة الطف ، فالشاعر يطلب من الشمس عند الأصيل ما يثير بداخله من أحزان متراكمة حيث الذكرى الحسينية المؤلمة أن تكون له شفيها عند الحسين تشهد له بذلك الحزن والفجع الأليم الذي يشخص واضحاً في ذاته المتألّمة وقت الأصيل ، ويطلب منها أن تكون له (الرسول) إلى ابن الرسول تخبره بالحزن الأزلي الذي يعتمل في ذاته لتأهية شوقاً للحسين (عليه السلام) ولا شك أن التقسيم الصوتي المتواتر الشاخص في هذا البيت حقق رثاء دلالياً وصوتياً متناغماً ومتفاعلاً ، حيث الشفاعة في الآخرة والبلاغ الدنيوي في الدنيا حيث التواصل الحسيني الفاعل في الدارين الدنيا والآخرة ، ذلك التناغم والتواصل الدلالي الذي انبثق عن التناغم والتواصل الصوتي الموصول بأسلوبية الوصل المتحققة (بالواو) ويستمر ذلك التقسيم الإيقاعي ليحقق نغماً وصوتاً مجلجلاً متناغماً مع السياق النصي مجسداً ذلك التقسيم ب(أما) التفصيلية في خطاب مجازي لتلك الشمس شمس الأصيل لأنها شهدت أركى شهيد وهو الإمام الحسين (عليه السلام) نور الهداية والرشاد وهو اهدى دليل وهو السابق في الخطوب شجاعة وبسالة وعطاءً دامياً ، وهو نجم السنا الذي هوى في غشاء السيول ولا شك إن تلك الصورة الكنائية رفدت النص الشعري بمعانٍ ثرة. ولا شك إن هذه إشارة إلى الاستشهاد الذي كان عطاءً ونماءً أزلياً لأمة محمد فهو سفينة النجاة ومصباح الهدى ، ويوسم الدهر بالظلم والجهل لأنه فعل فعله بالشيب الخضيب

ولاشك أن تلك إشارة فاعلة إلى أن الدنيا هي دار الباطل والآخرة هي الحيوان :

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) ٦٤/العنكبوت ويشير بعد ذلك متعجبا من ذلك الزمن الوقح الذي دنا من فاتح باب خير أسد الأسود أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ولم تتفصل حلقات كبوله ، وكيف أبطأ شفاء الغليل عن نجل الرسول الأعظم (صلوات الله وسلامه عليه).

ثم تتوالى المشاهد النصية العظيمة بصفة قصصية واضحة المعالم ، يعززها الشاعر بحرف العطف (الواو) ليصل الأحداث والمشاهد مع بعضها تواصلًا مشهدياً متفاعلاً موازياً بين المكانة السامية لآل البيت حيث الأطواد المعززة ، والأبحر الزاخرات ، وبين ما آل إليه الإمام الحسين في لحظة الاستشهاد في واقعة الطف ، حيث الطرق الكليل والعطش والظمأ الأليم ، ثم بعدها ينتقل إلى الجنان حيث سدره المنتهى ويعود ويقول عنه غريب إشارة إلى غربته في صحارى كربلاء وواقعة الطف ، ثم يعرج إلى ذكر البتول فاطمة الزهراء عليها السلام وتفردا حيث الصفات النبيلة ويعزز تلك الصفات الفاطمية بالثنائية الضدية بين النأي والقرب ليحقق حضورها الدائم الروحي عند مواليتها في كل بلاد وتفردا بخصال وكرامات روحية ليس لها شبيه.

ويبحر الشاعر في العمق النفسي الروحي حيث الراحة النفسية المتجسدة في ذكر الزهراء البتول ، محققا ذلك الفونيم الموسيقي المتفاعل في تقييم صوتي متماثل تضوي وتردئ تضوي النفوس وتروي العقول ثم تتوالى الأحداث في فضاء شعري متكامل ، حيث السيوف الحتوف ، والقلوب وفلذاتها ، تتهاوى في الضحى والأصيل ، تلك البوارق المظلمة في تلك الواقعة المؤلمة (واقعة الطف) حيث تتجسد المفارقة التصويرية في قوله (بوارق ظلماء) لأنها تتيح الظلم إذ حقق ذلك الجنس الفاعل بين الظلم والظلماء تلك الصورة الشعرية القائمة على المفارقة التصويرية المتجانسة ، ثم يعرج الشاعر إلى الاقتباس القرآني ليحقق هول تلك الواقعة الهوجاء التي أودت بحياة نجل الزهراء (عليها السلام) إذ يقتبس قوله تعالى:

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ) ٢ / الحج

حيث تتجسد تلك الصورة الكنائية وتتوالى لتحقيق التوقف الزمني عند المشاهد الحسينية لحظة استشهاد الإمام الحسين (عليه السلام) فالحمام ينسى الهديل والمرضة تذهل عن رضيعها وتتوالى (الواوات) العاطفة لتجسيد ذلك الحدث وأحواله العظيمة التي تنعكس على مجريات الحياة فتكسر أفق التوقع وتحقق انزياحاً صاحباً يقلب موازين الحياة ، وبعد الصريخ عن الصراخ والعويل عن الذي يندب ويمتاز بالعويل لان الصوت أو الموصوف الناتج والصارخ أصبح اشد حضوراً من الفعل نفسه أو المصدر نفسه ، ولان العويل أقوى من العويل نفسه ويسهم التكرار اللفظي لبعض الألفاظ مثل الصريخ والصراخ والمرضة والرضيع والمعويل والعويل في ردد النص الشعري بالموسيقى المتجانسة والمتناغمة في وقعها الإبداعي فلا من سبيل غير العبرات المنهلة فكنت السفينة أي سفينة النجاة التي حملتها تلك الأحداث الصاعقة ، ورددت المنون على عقبها ولا شك أن تلك صورة إستعارية تجسيمية حققت انتصار الثورة الحسينية على الموت بالبقاء والرأي السديد.

ويستمر الشاعر في التجانس اللفظي لتحقيق الإيقاع الصوتي المتناغم في القصيدة حيث اليسار ويسرى والتضاد الأسلوبى بين اليسار واليمين ليحقق من تلك البنى الأسلوبية الصفات الحسينية العظيمة حيث الجود ، والكرم والعطاء المستفيض ، وتبرز الصورة الاستعارية من خلال الاستعارة المكنية وما فيها من إبداع فني في رسم الصورة الشعرية المتجسدة بقوله (نفوساً حنت قوس عظمي عليها)، ثم يرسم الشاعر الصورة الطللية ليحقق بها بعدين ؛ بعداً واقعياً ، وبعداً نفسياً فالطفل فيه إشارة سيمائية للديار الشامية التي فارقتها الحسين (عليه السلام) دون أن يعود إليها هو وأهله (عليهم السلام) حيث استشهد غريباً في واقعة الطف وأضحت أجسادهم بتلك الأرض وبعد ذلك أصبحت تلك الذكريات والأطلال الأليمة تجسد الثورة الحسينية وعمق خلودها في الضمائر الحية فالحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة والذكرى الأليمة الحية التي لا تزول من قلوبنا ، وهو يستفيض في تلك الدلالة المكانية أو ذلك الفضاء المكاني الذي حزن حزناً شديداً بعد أن رحل عنه الإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته (عليهم السلام) ، وحتى عاد ذلك المكان ناطقاً بشكواه الأليمة ونسائه اللواتي تنزل مدامعهن لصوت صدى الرياح فتلك الدلالة السمعية (صوت الرياح) لها رد فعل أليم في نفوس الأوانس في تلك الديار المقفرة بعد رحيل نورها الإمام الحسين وأهل بيته (عليهم السلام) ، ثم يعرج إلى صورة إستعارية

تشخيصية (حيث تلمح اكف البروق) ألما وحسرةً ، وتكتمل تلك الصورة التشخيصية بعناصر الطبيعة المصاحبة للبرق حيث هطول الغمام والريح الذي يفقد معالمه لفراق الأحبة فضلا عن الطلل الشاخص في تلك المعالم.

ويبرز بعد ذلك صورة إستعارية لونية تجسد لبس الحداد أي السواد من قبل معاني السرور التي تلبس الحداد على الأنسات اللواتي يلبسن ثوب الذهول فتلك الصورة التجسيمية تجسد التجربة الشعرية الأليمة وتبرز المشاهد الرقيقة بذكر النساء من بيت الإمام الحسين (عليه السلام) فهن أحرار عزيزات نفسٍ حليهن جمان الدموع يسيل على خدودهن ، فبعد أن كنَّ يرفلن بحياة نعيمة لاقين الألم والحزن في تلك الحزون والسهول الخالية ، موازنا بين الصورة الماضية حيث قصر الليل والنعيم والظلال ، نفح الرياض ، والصورة الحاضرة المظلمة ، حيث هول السرى ، والليل الطويل ، حر اللظى والمقبل ، وذئاب الصحراء والغول ، لكن كل ذلك عواقبه الأخروية هي جنات عدن ، ويعرج الشاعر إلى قوله تعالى: (فَصَبِّرْ جَمِيلٌ ۖ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾) / يوسف

ليحقق إن الصبر والغربة والاغتراب وما حل بالإمام الحسين (عليه السلام) وأهل بيته (عليهم السلام) كل ذلك يبدل بالهداية والنور ، والأنين بجنات النعيم (جزاء بما صبروا) ويتوالى حرف الجر (إلى) ليكرره الشاعر (سبع مرات) متتالية ليحقق بتكراره ترنما موسيقيا متفاعلا ومجلجلا أعماق النص بالشخصية الحسينية العظيمة محققا بذلك التكرار والتقسيم الصوتي عمقا دلاليا وفونيميا متناسقا ، فهو الهاشمي الطالبي ، الفاطمي ، العطوف ، الوصول ابن الوصي ابن النبي ، ابن الذبيح ، ابن الخليل هو المستجار من المستجير ، المستقال من المستقل ثم ينتقل بعد ذلك إلى المشاهد الأخروية حيث المقام في عليين عند ملك مقتدر فهو مستضاف في الحضرة السماوية عند الملك العزيز بعد تلك الغربة الصحراوية الظالمة ، ويعرج الشاعر إلى الاقتباس القرآني بقوله تعالى : وَلَقَدْ رَأَوْا نَزْلَةَ أُخْرَىٰ ١٣ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ١٤ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ١٥ / النجم ليحقق من ذلك الاقتباس القرآني صورة كنائية تجسد المقام الشريف العظيم للإمام الحسين (عليه السلام) في سدرة المنتهى عند الملك المقتدر وهو قد نال المنزلة لأنه خلد الشرائع التي سنّها جده الرسول الكريم محمد (ﷺ) ، ويختتم هذه اللامية بمدح آل البيت عليهم السلام فهم الكرام ويكني عن جدهم هاشم بن عبد مناف واسمه (عمرو الكرام) ، و (شبيهه) هو اسم أبي طالب عم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فتلك المسميات إشارة إلى آل البيت وكرمهم للضيوف وتتوالى الصور الكنائية التي تجسد ذلك الكرم العربي حيث دنو النزول ،

وفرش القيول ، حتى عاد قراهم من الكوثر العذب والسلسبيل لأنهم جزء من الجنة وكوثرها وسلسبيلها ، ثم يعرج إلى ذكر الرسول(صلى الله عليه واله وسلم) فهو خاتم الأنبياء الذي نزل عليه الوحي وكان النور الأزلي إذ زود الهدى والرأي الأصل فكان خاتم الأنبياء والمرسلين حمل الرسالة الإسلامية النورانية الخالدة إلى يوم الدين .

خاتمة البحث

في نهاية المطاف توصلنا إلى النتائج الآتية:-

١. إن ابن دراج القسطلي كما تشير المصادر هو أول شاعر أندلسي في عصر الطوائف نظم شعراً حزيناً في مصائب أهل البيت(عليهم السلام).

٢. وجود نقاط تشابه في قصيدتيه بين الأمس واليوم بين الإمام الحسين(عليه السلام) وأصحابه الذين لبوا نداءه وبين أبطال الحشد الشعبي الذين لبوا نداء المرجعية للدفاع والذود عن الوطن. هذا التشابه الذي يتمثل أيضاً بقوة هذه الإرادة الصلبة والإيمان المتماصك بما يُلقى عليهم من مهام فدائية وصعبة متمثلة بالدور الاستشهادي في سبيل الدفاع عن الوطن

٣. استمرارية ثورة الحسين ونهجه الإصلاحية الثائر ضد المفسدين باختلاف الأجيال وتتابع الأزمنة ، فما أشبه اليوم بالأمس ، فكما هبَّ أصحاب الحسين الأبرار للدفاع عن دينهم وإمامهم ومقدساتهم باذلين أرواحهم وأموالهم وبنيتهم وأعز ما يملكون في سبيل غاياتهم العظيمة حتى قال فيهم الحسين(عليه السلام) "لم أر أصحاباً قط كأصحابي". ها هم حفدتهم اليوم متمثلين بأبناء المرجعية أبطال الحشد الشعبي يلبون نداء حفيد الحسين ويهبون للدفاع عن مقدساتهم ووطنهم باذلين الغالي والنفيس في طريق الاستشهاد أو النصر متتبعين آثار سيد الشهداء(عليه السلام).

٤. توصلنا من خلال التحليل لقصيدي ابن دراج القسطلي إن الشاعر اتكأ أسلوبياً على أسلوبية الكناية والتضاد في تجسيد الصفات الحسينية العظيمة وقيم الشهادة ومناقب آل البيت(عليهم السلام) فضلاً عن التكرار اللفظي والصوتي الذي أثرى النصوص بالشحنات الدلالية والصوتية المستقيضة التي أثرت السياق والتجربة النصية.



الهوامش

١. مقدمة درر السمط : ٥
 ٢. البيان في أخبار الأندلس والمغرب ، ج ٢ ، ٥٤ - ٥٥
 ٣. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ج ١ : ٧٠ - ٧٤
 ٤. أدب الطف : ج ١١/٤
 ٥. م. ن
 ٦. تاريخ الأدب العربي : ج ٦ : ١٣٠
 ٧. وفيات الأعيان : ١٥/١ ، النجوم الزاهرة : ٢٧٢/٤
 ٨. المغرب في حلى المغرب : ٦٠/١
 ٩. جمهرة أنساب العرب : ١٦٦
 ١٠. الأدب الأندلسي منذ الفتح حتى سقوط غرناطة : ١٤٤
 ١١. ديوان ابن دراج القسطلي : ٧٠ - ٨١
- المصادر والمراجع
- *القرآن الكريم
١. أدب الطف أو شعراء الحسين (ع) ، السيد جواد شير ، طبعة بيروت ، د.ت.
 ٢. الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، منجد مصطفى بهجت ، دار الكتب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٨
 ٣. البيان في أخبار الأندلس والمغرب ، ابن عذارى المراكشي ، ج ٢ ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧.
 ٤. تاريخ الأدب العربي (الأدب في المغرب والأندلس) ، عمر فروخ ، ج ٥-٦ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢.
 ٥. جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم الظاهري ، تحقيق عبد السلام هارون ، ط دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٢.
 ٦. ديوان ابن دراج القسطلي ، تحقيق د. محمود مكي ، ط دمشق ، ١٩٦١.
 ٧. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني ، تحقيق د. احسان عباس ، ١٩٩٧ ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان.
 ٨. المغرب في حلى المغرب ، لابي محمد الحجاري وعبد الملك بن سعيد وآخرين ، تحقيق شوقي ضيف ، ط دار المعارف ، مصر .
 ٩. درر السمط في خبر السبط ، ابن الابرار البلنسي ، تحقيق د. عبد السلام الهراس وسعيد أحمد ، مستل من مجلة الموسم عدد ١٣ ، ١٩٩٢.
 ١٠. النجوم الزاهرة ، ابن تغري بردي ، القاهرة ، ط ١٩٣٣.
 ١١. وفيات الأعيان في أبناء أبناء الزمان ، ابن خلكان ، تحقيق محي الدين عبد الحميد ، ط النهضة ، القاهرة ، د.ت.